إيتل عدنان

هنـــاكَ

في ضياء وظلمة النفس والآخر

ترجمة

سركون بولص

منشورات الجمل

إيتل عدنان

هناكَ

في ضياء وظلمة النفس والآخر

إيتل عدنان

هناكَ

في ضياء وظلمة النفس والآخر

ترجمة

سركون بولص

منشورات الجمل

ولدت **إتيل عدنان** في ١٩٢٥ ببيروت - لبنان. تركت بيروت عام ١٩٤٩ الى باريس ثم عام ١٩٥٥ الى بيركلي حيث درست الفلسفة. تقيم الآن بين باريس وسان فرانسيسكو. شاعرة ورسامة وروائية. نُشرت لها العديد من المؤلفات الأدبية، وقد تُرجم بعضها الى أكثر من لغة.

ولد **سركون بولص** في ١٩٤٤ بالقرب من بحيرة الحبّانية - العراق. يقيم منذ عام ١٩٦٩ في سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة الأمريكية. صدر له: **الوصول إلى مدينة أين** (أثينا ١٩٨٥)، **الحياة قرب الأكروبول** (الدار البيضاء ١٩٨٨)، **الأول والتالي** (كولونيا ١٩٩٢)، **حامل الفانوس في ليل الذئاب** (كولونيا ١٩٩٦)، **إذا كنت نائماً في مركب نوح** (كولونيا ١٩٩٨).

إيتل عدنان: **هناكَ**، في ضياء وظلمة النفس والآخر، ترجمة: سركون بولص

الطبعة الأولى

رسمة الغلاف: إتيل عدنان

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany

Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

في ذكرى خليل حاوي

هناك

أين نحن؟ أين؟ هناك ثمة «أين»، لأننا بكلّ عناد، موجودون، وكان لنا وجود، فمن نحن إن لم نكن أنا وأنت؟

أين نحن؟ خارج التاريخ، خارج قصته أو قصتها، وعَوْداً إليها، خارجاً في الفضاء، وعوداً إلى الأرض، خارج الرحم وبعدها إلى التراب، من نحن؟

أين الأنين، أين الرعب، الحبّ، الألم؟ أين الكراهية؟ أين حياتكَ، وحياتي؟

هناك ثمة أين، مرتبطة بخطوط التلفون، مكان للإنتظار، وآخر للنوم، قبلة وزهرة، وأين نحن عندما تكون، وأين أنتَ عندما أنتظر منك أن تكون، أن تكون البشر الذين أراهم.

من نحن، نسلٌ، قبيلةٌ، قطيع، ظاهرة عابرة، أم مسافرٌ ما زال يسافر من أجل أن يكتشف من نحن، ومن سوف نكون؟

هل يا ترى نسافر على حبلٍ ما، هل السرطان يأكلُ جيراننا، أين تكون الشمس عندما يهبط الليل، وأين الفردوس على طرقات المحيط الأسفلتيّة؟

من نحنُ، امرأةٌ أم رجل، وهل ذلك موسميٌّ، هل هو أبديٌّ، وهل صحيح أن هناك رجالاً ونساء؟ لا بدّ أن هذا صحيح، لأنّك ولأنّني.

هل هناك حقدٌ في قلبك، وهل يعني ذلك أنني لستُ هنا، وأين أنت عندما يكون الوقت متأخّراً؟

أن نمضي، أن نكون ماضين، قدُماً، لأن العالم دائريّ، أن نعود أدراجنا، إلى أين، إلى ماذا، أن نكون كرةً تنطّ، أين، على ماذا، أن تهزمنا الجاذبيّة.

من أنتَ عندما لا تكونني، ومن أنا؟ هل ينبغي أن نكون بشراً أم أسماكاً، أسماكَ قرش، أذكياء بما يكفي. لنمحو أنفسنا من على وجه الأرض؟

وما هي الأرض؟ بعض الطين، بعض الصمغ، مذنّبٌ ما، هل يمكنها أن تنتمي إلى نفسها؟

هل عليك أن تحبّني لأنني حرّة، وهل عليّ أن أتبع مصيرك بدل مصيري، إلى خارج التاريخ، بعيداً عن الزمان وأقماره الصناعيّة التي أسماؤها الخوف والموت؟ هل عليّ أن أكون؟

أين نحنُ؟ في الوسط، عند البداية، النهاية؟ من نحن، أهذا أنت زائداً إيّاي، أم شيء آخر قابل للامتداد، قابل للانفجار، ملحُ أفكارنا وفلفلها، ذلك الشيء الذي قد يدوم ما وراء أُلوهيّاتنا كلّها؟

هل ذاهبة أنا دائماً بواسطة قارب، ومن أين؟ هل أنا أبكي، ولماذا؟ هل يسدّ الطرقات ملائكةٌ أم جنود؟

إنني أطلب منك أن تركض سابقاً نفسك وأن تخبرني لماذا عظامي باردةً هكذا، أم هل أنني أريدك أن تترك أشجاري وشأنها وأن تبحث عن الماء حيث تطفح الأنهار؟

ذاهبةٌ، في قطار، أتوقّف في لا مكان، لأنّه لا مكان، والبشر يتدفّقون فيه، كأكياس مبقورة من الحنطة، والطيور تطير عاجزةً فوق رؤوسهم.

من نحن، أطفال التاريخ أولاء، أطفال من، أيّة فترة، أيّ جانب من التاريخ، الحروب أم القصائد، الملكات أم الغرباء، على أيّ جانبٍ من تاريخ مَن سوف نكون؟ هل سوف نكون؟

أين نحن؟ في صحراء، فوق ثلاّجة قطبيّة، داخل رحم أمٍّ أو في عينيّ امرأة، في حنين رجلٍ، أم هل نحن في داخل بعضنا البعض، داخل مستقبل كلٍّ منّا، مثلما كنّا في الماضي؟ هل نحن أمواتٌ أم أحياء؟

لم يسبق لي أن كنت هنا أبداً، حيث يترنّح قاربُ لذّة في الحرارة، وأنت لم تكن أبداً في حديقة عمّتي، أين كنت إذاً؟ خرجنا نبحث عنك وإذا أنت نائمٌ بالقرب من نافورة. أين كان ضوء القمر؟ أين القلقُ واللهفة؟

رميتُ ذكرياتي من النافذة فعادتَ إليَّ، غريبةً، شحَاذين وساحرات، تاركةً إيَاي واقفة، وحدي كالسيف. هل هذا هو السبب في أن الشمس تبدو كالحةً هكذا عندما تنظر إلينا، ولماذا هناك كلّ هذا الحبّ تحت وطء الحرارة والحقيقة؟

هناك

آه نعم! رسا كولومبس في مكان ما، أين، جالباً معه النتانة، الأمراض والجراح القاتلة، ألواحاً لكي يُصلب عليها الهنود، ومتى كان ذلك وأين؟ ها أنت إذاً أخي التوأم العدوّ، ظلّي التوأم، وهل ذهبنا إلى الأميركتين، من بعث بنا إلى هناك؟

إنزل عميقاً في حنجرة العالم، ما من طريق للخروج من هذا الكون، لكنه آنذاك هل هنالك حقاً كون، ولماذا، ومن أين، وهل وجوده ضروري لكي يكونَ أي شيء، وإذا لم يكن هناك مكانٌ ما، ماذا إذاً، بلا إيمان، بلا أمل، ربما هناك حبٌّ، في مكان ما؟

هل ننادي الريح على امتداد المخيّلة الشاسع، هل تغلق

بابي أم هل تأتي بالمفتاح في الليل، بالطعام، بالإبتسامة، بالحقد والحب؟ هل أنت هناك في الظلام؟

هل مطلوب من الجبل ألاّ يتحرّك وهل على السماء أن تكون مفتوحةً على وسعها عندما نكون موقنين من أنّنا، من أنّنا ماذا، هل ما زلنا أحياءً عندما نكون قد متنا وهل نحن هنا لكي نبقى؟ هل تدري أنني هنا، مثل نهر، مثل سكّين، أو أيّ شيء يمكن لك أن تشتريه وتأخذه إلى البيت؟

إلى أين سنذهب عندما تنطفيء الأنوار ويبدو أننا متشابهون؟ نطالب بعفوٍ من الجفاف لكننا نخاف الماء إلى حدّ أن يتوقف المطرُ عندما يأتي ونعود إلى الشمس.

حركاتُ الجسد، الحرارة، النار، كانت بديعة، وإلى أين مضت الظهيرات، لماذا كلّ هذه الحروب، لماذا نبش غيفارا عظام كولومبس من الأرض؟

وتكلّمني عن السلام، بينما نشرب القهوة كما في الأيام السالفة، أعني بين الغارات العسكريّة ولا أحد يدري كيف كُتبت الموسيقى، من كتبها، على طاولة من، وهل كان ذلك بالحبر أم الدم؟

وكما ترى قد يحدث أن نمضي كما مضت الديناصورات، لكننا ما زلنا هنا، أليس كذلك، والله سبقنا في اختفائه الإلهي، ألم ننقص نقصاناً معاكساً من شهيّتنا الزائدة، متكاثرين من أجل ألاّ نكون هنا ذات يوم، يوم كالأيّام الأولى، عندما تكون الأحجار، تكون هناك على التربة، الأحجار ليست هي النهاية، نهاية ماذا، نهاية من، نهايتك أنت أو نهايتي، وربما أنت فقط ثم فقط أنا، عندما لا يعود يهمّ الأمر، فالأحجار هي البداية

هناك

في أحشاء الأرض نجتمع ونخطّط عمليّات مميتة، هنا بالضبط، بمعزل عن قرارات البحر، وتظهر أنت بيننا – ماياكوفسكي في مطبخ فيرمير – تغلبك الحيرة: هل يمكن لأحدٍ ما أن يخطط لموتك، هل يمكن لهم أن يقتلوا جارك القديم (هل سيمنعونه من مشاهدة نشرة الأخبار، في تلك الليلة القاتلة، هل تنظر روحه إلى جسده الغارق في بركة من دمه؟)، أجل، سيفعلون، وأنت ستفعل الشيء نفسه، فالقتل يأتي أولاً، وبعد ذلك، الأسباب.

عبرنا غاباتٍ، هل تتذكّر، كان الحلم ينمو أسرع من أشجار جوز الهند، كنّا نحرّر العالم من خيباته. دفنّا فلاّحين بوليفيين إلى جوار تشي، معيدين تمثيل قصّة

المسيح بعيداً حتّى منابع الأمازون. ذهبنا إلى هناك. تلك الرحلة مسطورةً في ذاكرة حقيقيّة.

هو الذي يحسب الساعات يفقد حسّ اللازمنيّة ونحن نحسبُ أمواتنا. الوقت دائماً متأخر، متأخر بالنسبة إلى ماذا، إلى المحاورة التي نريد أن نديرها ذات أمسية متأخرة في «مقهى بوغاتي»، في مكان ما على «الساحل الغربي»؛* بعيداً عن خطّ الجبهة، لكن الحرب تجري من حولنا، ظاهرةً بدرجات مختلفة من الحدّة. نموت دائماً على بقعة محدّدة المعالم. الجسد يذهب.

فيضانات، لها ديمومة الشمس. إنّ سلاماً معيّناً أودّ لو شاركتني إيّاه يغزو انتباهي في صباحات الخليج؛** الباكرة. النور يتبخّر من الأرض ويحمل الروح إلى حسّ

* «الساحل الغربي»: يُقصد بها سان فرانسيسكو.

**: خليج سان فرانسيسكو.

البدايات. تبدو الأشياء ممكنة، ولها علاقة ما باندفاعة العيش.

لك أن تدّعي الحظوة بالنسبة إلى تجربةٍ كهذه. كيف لنا أن نقيّم صفاء ذهنك، براءته؟ الأمر واضح هناك، في ذاك المكان، كما أراه من نافذتي، ودماغي يفوق في حدّته قمر الراديو الصناعي. لا حاجة لي بالسفر إذا ما أردت أن أزور شوارع بلدتي التي اختفت، وأنت تفعل الشيء نفسه، أنا متأكدة، حتى لو أن مسقط رأسك يقف ممجّداً تحت رايته، لكنك فقدت إلى الأبد ذلك الضياء المعيّن الذي كان يصحبك إلى المدرسة عندما كان عمرك يتراوح بين الرابعة والسادسة.

إن شارعاً ما منطقةٌ مستعادة من الماضي الذي نُغرق فيه أنفسنا بحثاً عن التحوّل. الحقّ، إننا منشغلون بتدمير الأشياء التي نحبّها لأن نفاد الصبر جزءٌ من عاطفة الحب.

ميّتٌ، مميتٌ، هو الموت. الزمانُ محسوبٌ. لا تدعَونا نقيس خِفّة الحبّ العديم الوزن. هل هناك نورٌ قدّامنا، أما من سماءٍ ترفع نفسها في احتدادها الفتيّ؟

هناك

وهناك جلست ظلالنا أحدها يواجه الآخر، وهل كنت وراء الغلالة، وراء الجدار؟ كانت عيناك تستوعبان زرقة الحزن بينما كنت أنظر إلى النيل، ذلك النهر الذي يبدأ عند الأفق، ويهبط عبر شرفات كبيرة، هلِعاً، مخيفاً، وثمة زهرة وصلت إليّ، نهشت ما أناهُ، تحولّت إلى ربّةِ فراشة، ومضينا قدُماً، في انخطافة.

ألا يمكن لنا أن نفهم بعضنا البعض ونوقف القتل، بدون الرقصة، الركض والسير؟

هذا الصباح؟ الوقت باكر للذهاب إلى الشاطيء، أكثر بكورة من أن نبدأ بالقتال، لذا نتلكأ على حزمة ضوء ونخترق النوافذ، غير ملحوظين، بينما ينتظر رجال

البوليس مسلّحين بالهراوات، والقفافيز، والغازات، وأوامر بأن يطلقوا الرصاص أو لا يطلقوه ما وراء دماغ الواحد، لكن هل يمكن للبوليس أن يحتفظوا بهدوئهم أكثر من زهرة يمكن لها أن تتوقف عن الصعود من الماء وتتحول إلى باراشوت، إلى آلة سماويّة من الحرب العالمية الثانية انطلقت منذ زمن إلى الفضاء الخارجي؟ نحن ضعفاء، إذ نجلس، ونواجه بعضنا، وقروننا مشتبكة في معركة.

وهكذا جلستُ على الأرض، أيا شهرزاد، وما من ملك يصغي، ولا شحّاذ، وهل أنت هناك، خلف الستائر، ما وراء جبالنا؟

من هو عدوّي، وهل ينبغي أن يكون لي واحد، أهو صديقي الأقدم، هل كان شاباً عندما دخل المذبحة، هل كان له، عن طريق الخطأ، أن يُردي ابنتَهُ قتيلةً؟

الشمس تعلوني، تلك الشمس الأصليَة التي تتكلَم عنها الملائكة، كرة من النار، انظروا! ثمة تراب هناك، عواصف، هناك حب، أي حب، من أجل ماذا، ثمّة شيء هناك يستمرّ في النموّ...

الطقس بارد، هناك، تحت خيام بدائية مصنوعة من جلد ناعم كجلد قلبي. ما أجملك، أيّها الشاب يا صاحبي، ليس بوسع عينيّ أن ترياك، لفرط شحوبك يضيء حضورك بيتي.

انظر إلينا، رغم أننا لا ندري إلى من نتكلّم، ليس عليك أن تعرفني، عندما تهبّ الريح تأتي إلينا بجمالك الأثيري، قبل أن يفوت الأوان، وقبل أن نمضي على دروبنا المتشابهة والمختلفة إلى حيث يتسابق عقلي أسرعَ من أفكاري.

على أية حال، من أنت؟ أنت المولود تحت شارة الأنثى،

المحارب، المرأة أو الرجل، وهل يهمّ ذلك عندما تتصاعد الرغبة قبل أن ندري، بائحةً بأشياء مجهولة؟

تقف أمامي كالموت، أو الكلمة الأخيرة، مصنوعاً من الزمان، من السرعة... لقد صدّرتَ لحماً حيّاً، نفخت الحياة في اللعنات وجعلتها تذوب في عظامنا. من الذي يمكن لي أن أسمّيه صديقاً؟

دائماً، على الأفق المضفور، هناك الخوف، وثمّة قلقلةٌ تجري مثل إله من زمن سحيق، أو موجة التفكير الأولى، وأنا في عجلة من أمري، ألست أنت كذلك أيضاً، أنت من لا أستطيع أن أسمّيه امرأة أو رجلاً؟

هل أنت ماءٌ شفّاف كما اعتادت عيناي أن تكونا، هل أملك، في هذا، الكلمة الأخيرة؟ هل أنت وحش رؤيا القيامة، تحتاج إلى حقل من الحنطة من أجل زفافك؟

إنهم يطلقون النار على خطّ الجبهة، يفزعون الأطفال من النوم، كما سبق وأن حدث، هناك، عندما لا ينظر أحد.

تعيش في ظلام الروح، في مكان ما من جنوب إسبانيا، حيث تزوّجنا، وطلّقنا، حيث حصلتَ على إجازة مرضيّة، وكانت الكنيسة ترسل أنظارها من فوق أكتافنا، عندما لم تكن تصلبنا أو تحرق كُتُبنا.

لماذا تزعج نفسك بما مضى من الأعوام الآن إذ نذهب إلى القمر بواسطة الصواريخ، إلى ما وراء عُطارد وإن لم يكن ما وراء مصائبنا، لمَ الأسى، لمَ الماء المالح والجوع؟

النظام يتخلخل، إنه انفجارٌ، أشلاؤه أعضاء بشريّة، ومن يأبه؟

إنك تواجهني، أليس كذلك، أو إنك قد لا تكون هناك وقد أذهب إلى السينما، حيث يذهب نصفنا، بينما يذهب النصف الآخر إلى الجحيم. لكن حَذارِ، الأدوار قابلة للتبادل، وأنت لا تني تبعث إليّ بالرسائل بواسطة طيور البطريق.

في هذه الأمسية، هذه اللحظة المليئة بالنذير، أيّة أجوبة لديك، أيّ صدام للإرادات نعزّز عندما نجيب على الرصاصة بالرصاصة، على ألف جثّةٍ بألفٍ مثلها؟ ومن سيُطعِم الذئاب؟

هناك

في الهُنا والآن. نعرفُ الصور والكلمات لكن أين المفتاح والحلقة؟ إمبراطوريّة تنهار، أيّها؟ الإنهيار ليس ثورةً، روسيا غير مفتداة، أية روسيا وإلى أيّ مدى من الوقت؟ الحبّ والعدالة هما المسيح المُنْتَظَر، أليس كذلك؟

٦٠،٠٠٠ من الأطفال مفقودون في الولايات المتّحدة وحدها، من يفتقدهم، الحكومة، الشعب، أنت وأنا، متحّدين في تلك الحرب الخاصة التي تُخاض ضمن حدودنا، أية حدود، يمكنك أن تسأل، حدود القلب، هذا الشيء المعيّن الذي له حمرة الدم.

ها أنت ترتّب تقويمك عائشاً ما وراء الضباب لكن الألم لا يحتاج إلى معاهدة، السجناء السياسيون لا يسمعون

شيئاً عن الدبلوماسيّة، فهم خلف القضبان بسبب ما فكروا وما جازفوا به. إسمع، هناك في أزهار البرتقال والموز، في شجرة الآس التي لجاري كانت الطيور تغرّد عن الحرية للفتاة الصغيرة التي كنتُها، هناك في ذلك المكان، وأين هي الجسور؟

تعرف أنت ذلك كما أعرف، أنك عشت حيث عشتُ أنا وغادرنا في نفس اليوم بمناخه العاصف. أين كنت عندما نشبت الحرب، الحرب الواحدة والحروب العديدة، محيلةً شعوباً كاملة إلى صفوف طويلة من الخراف؟

هل أشرح ما معنى أن نُهان، ألم أرافقك إلى ملكوت الأموات، ألم نحاور الأشباح، بعضاً ممن نعرفهم والبعض الآخر ممّن لا نعرف...

الطين عنصر جوهريّ، عزيز على الخليقة، فطريّ بالنسبة إلى أرض ذات أنهار، أنهار من المنيّ والملح، ومنه أيضاً يشيّدون البيوت، هنالك، وهو مغطّى بالنابالم والعَلَم الأميركي.

تتحدّث عن الشعر، كما يفعلون في بلاد العرب أحياناً مع جواسيس سريّين. إن لم تكن الكلمات في الشوارع فهي بائدة، قلت لي هذا وأصغيت إليك، بينما كانت البراءة مُتاحة لنا.

إنني أقول لك، الغضب يموت بينما تبقى النيران، وقبل أن تنتج شجرةُ عائلتي الزيتون الذي ستأكله، هناك، في الحرارة الغضب والتراب، سوف تستحيل الحجارة إلى أوراق.

هناك

أمطرتْ دماً. تهدّمت مدنٌ مقدّسة. لا أحدً راقب النيران.
مخيلّتنا بقيت سالمة بعد انقضاض الغارات؛ لماذا سامتْ
نفسها كلّ هذا الرعب، هو ما لا نفهمه.

الرعب هنا، لا يلين أبداً. الريح تعصف، الشمس تتبع
مدارها، أين يمكن لها أن تكون إن لم تكن بين ظهرانينا؟

أين حبيَ لك، متخفياً، حارساً على نومك، يمشّط جسدك
بالأسئلة، يستعدّ للزفاف؟ هل يبعث يا ترى، بالنذُر المعلنة
عن كارثة؟ هل الجنس البشريّ يصرّ على صيرورته؟

هناك

وهنا، يمكنهم أن يزرعوا عيني على رأسك أو أن يخيطوا يدك على ذراعي، بينما نبعدُ عن بعضنا بمقدار سنواتٍ ضوئية لأن الشرَّ، في مكان ما، مُستنزَلٌ عليك، وأنت أردت لنا أن نموت، أنت الكائن المنعزل الذي يصارع مثل حوت، وأنا، أي، زُحَل وعُطارد في حربٍ فوق المحيط.

في تألُّقٍ رماديَّ، على أمداء الدِماغ الملّونة، الساعة غير أكيدة، ترتعش هناك، في ذلك المكان، في الداخل هذه المرة، أم هل أنها خارج غور كينونة الواحد، طالما أننا الآخر دائماً؟

الأيام ترتدي لباسها العسكري، بروميثيوس سرق النار، من أجل من، من أجل ماذا، من أجل الحرب؟ في

حروب من نحاربُ؟ إنني أشهق من أجل الهواء، لا من أجل الغاز، ليت هذه الغيوم المهلكة تعبر وتختفي، ليت الأفق ينفجر وينفتح!

إنه الظلام، ما بعد الظلام، توصلنا ببعضنا ثمّة ذكرى عتيقة أقرب ما تكون إلى تجربة الولادة. فردوس مَن سوف يكون الفردوس؟

في أنفاق القلب الجوفيّة يمكن للشهيّة أن تنقلب إلى سُمّ، الغضب المزرقّ قد يعني العمى بالنسبة إلى الأطفال، هناك، في ملعب الموت، يمكنك أن تجد يدي قبل أن تحترق وتختفي، بينما الزمان ما زال يقف ساكناً.

هناك

الزمانُ جديدٌ والصفحةُ بيضاء، يأخذ النور مسارَهُ نحو حدّةٍ أشدَّ، النهارُ يؤدي إلى صحيفة الصباح.

إذهب فاجلس هناك. كانت أمّك تقول لك عندما كانت ما تزال شابّة وكنت معجباً بشعرها وتحبَّ لو تكون مشطها الصغير، أنا كنت أجلس في حديقة مختلفة، وكنّا نأكل الأزهار، تفضحنا شفاهنا الصفراء.

هل ما زلت تحتفظ بذلك المذاق في فمك، هل على قلبي أن يبطيء دقّاته، انتظر، لكن لماذا، الآن وقد تفرّقنا، وانتُزعت منّا ألعابنا القديمة، كانت قليلة، وتحمل الإشراق.

هل ستصبر الطبيعة على هياجاتنا؟ الحبّ هدّام، قلت لي،

مضيفاً إنه يعذّب الجسد حتى يخرج عن طوره، وكم كنت موقناً من حبّي، هل نحتاج إلى كلّ هذه البلبلة لكي نمارس حياتنا اليوميّة؛ هذه الأنهار ستطفح حتى الأرصفة، النور سيطمس مرآى السماء، ثمّ يصير أكثر هشاشة من الضباب، يأساً لا مرئياً تماماً يُصار إلى نسيانه من قبل الجميع، ونحن أيضاً...

ها انتذا، سأتوقّف عندك، والصحراء التي أحملها فيَّ ستجلو عاصفتها. كانت السماء ليلة أمس جميلةً بشكل يدلّ على نفاد الصبر، أخذتنا إلى ما وراء الأشياء التي أبوح إليك بها الآن.

إلى أين ذهبنا؟ المسافة سرٌ، لماذا لا نستطيع أن نخترق البُعد؟ هل يمكننا ذلك؟ ما من شيء سيوجع ما يوحدنا، لذا دعنا نجلس؛ إنّ محاورةً ما بدايةُ الحضارة، لقد أردنا تأليهاً، لكن كلا، لنشرب القهوة.

هناك

هناك، في هذه الغرفة، حيث يوجد الألم، نعم إنه موجود،
إنني أعيشه وكذلك أنت، حتى لو أنني لم أحبك.

أمام البحر الذي تغطّيه مروجٌ زرقاء يرتجف خطٌ من
النار، يغمرك تماماً، وأنت تواجهني بالمدافع، كما واجهتني
بالنقّافات والحجارة، ولِمَ هذا المعدن الرمادي المحلّق فوق
رأسي، وأنت تستدير باتّجاه الظلام؟

هنالك أشجار قليلة، الأشجار تقلّ وتقلّ، الغاز يملأ
رئتيك، ويملأ أعضاءك الجنون. أنا لم أعد في وفاق مع
العالم وأنت، لا تدع قلبك ينكسر، إن الحبّ سيكسر حاجز
الصوت في عروقك وفوق حقول الأرض الوادعة.

لكن الأشياء دائماً مستحيلة، ماذا عن الممكن ولمَ الغياب؟ هل نسيَ البحر حكاياته الملحميّة؟

إسمع، اسمع إذا كنت تُبالي (أو لا تبالي)، لا تخطيء فتحسب الخمر غذاءً، جرّب أن تعرف الخوف خارج رحم أُمّك، تذكّر بأحشائك، تكلّم من قلبي أنا، خلّص نفسك، إذا استطعت، من غضبي.

هناك، على طول الرخامات البيضاء التي تتسلّق أدراج السماء الناغلة بالطائرات، إسمع، هناك ضجيج، الأبواب مفتوحة على العدم بينما تصارعُ، وتُتأتىء، وأتكلّم بلا صوتٍ أنا...

في هُناكيّة الزمان، سباقٌ إلى البحر، انظر، إنه عند مطرح قدميّ وأنت تقف تحت طوفان من البرَد، ولا شيء ينمو،

الحنطة والذُرة نضجت وانتهى أمرها، وأنت تتحركَ ببطء، لأن لا نهائيّة الفضاء بينك وبيني.

هناك، عمليّاتُ السبْر الشمسيّ لا تني تحطّ على قلبي وتخلق فوق جلدي بياضها الخالص، في معدتي، كذلك في بطنك، تمخضُ المجرّات، وما من رقص هناك، أُزيلت الموسيقى لأن شجرةً تكافح من أجل حياتها في مستشفى قريب.

دائماً تحت الإبتسامةِ تكمُن ثعابينُ الخيانة، وانظر كم أزرقٌ هو الصباح، محيط رغبتي الأخير! بينما كنتُ أصغي إلى مختوميّ المصير، كنتَ تتمترس خلف ذكريات الموت، ولِمَ كلّ هذا، أين ذهبوا جميعاً، القواربُ، البشرُ، أين؟ دائماً إلى مكانٍ سبق وأن تركناه. ينابيع الماء البارد تتعرّج عبر أجراف بلد الآخرين، وليس بلدي أو بلدك قطّ.

الجبالُ تحيط بي، الجداول تغزو نباتاتي، لماذا لا يُغرقون آمالك بالغزو، ويكتسحونَ قبر أبي؟

إنهم يأكلون الخبز الحاَف، هنالك، تحت رعاية رَعْ*، وهنا يتضوّرون جوعاً وسط الرفاه، وعندما تقف هناك، محدّقاً فيهم، يرفضون أن يروا أنك تحترق بنارٍ تُغذّيها الحجارة. مجرىً يابسٌ لنهر، شرٌ، لا شجرة، ولا شوكة... هنا، وهناك، تلتقي في هذا النهر، وادي الأموات هذا.

* رعْ: الإله الفرعوني.

هناك

هناك، حيث أنت (هل أنا موقنة من أنك في المكان الذي أفترضُ أنك فيه؟) ثمّة حياة، ثمّة نماءٌ، كما يبدو، ظلال...

حواليَّ، هناك حياة أيضاً، وفرةٌ منها، بعوض يحلّق حول مقعدي، صراصير في السرداب، ستائري من أنفس الحرير بالرغم من الفقر الذي يشعّ عبر الليل والذي اختُرعتْ من أجل قمعه البنادق، تعرفُ ما هو معروف تماماً، أننا نجمع الفقراء خلف القُمامة ثمّ نرمي بهم مع براميل الزبل إلى ما وراء حدود البلدة.

لا أحدٌ من آلهتنا فقيرٌ لذا كيف لنا أن نصلّي لها، أين الوعد، أين الجنائن المعلّقة؟ لمَ القمر خجولٌ هكذا الآن بعد أن قِسْنا أبعاده بهذه العناية؟

إسمع. مرّةً أخرى. سحرُ الكلمات يعتملُ. هناك، على الجانب الآخر، أيّ جانب، سرعان ما سنكتشف، أنّ الموج يرتفع ربّما، أن قارباً يلجُ المرفأ، لقد رسا النوتيّ، سيُتاحُ لي أن أثق به رغم هدير المدفع، وثمّة طعامٌ يقدّم للأكل، هيّا بنا نأكل، طالما نحن جائعون.

الرعب، إنك بالرعب موصول، يعرف الأطفالُ إسمك، إنك ترفع درجة الحرارة، أين سيرقدُ رأسك عندما تصير الضجّة غير محتملة، هل ستطردنا خارج هذه المعيّة، بعيداً عن كبِر النهار؟

كلّ هذا كان مقصوداً أن يكون: هذا الألمُ، تعني، الزئبقُ في السمكة، سمٌّ يأتي ليرسو في عظامنا. لقد بردَ دمي، كان كل شيء جميلاً قبل أن ترسو، لقد لاحظتَ ذلك، أزعجتُ هدأة الجبال، ذلك المكان لاستراحة الإله؛ كانت لنا أشجار،

أيّة أشجار هذا ما سأرويه لك فيما بعد، لكنها كانت تغمر مجال رؤيتي برمّته، وأنت من غيّمتَ تلك الرؤية، لأيّ سبب...

هناك

الأنهار تخلطُ في مياهها القلق، البحر يتألّق، مقلّماً بتدّرجات لونيّة مختلفة، تلك التي رأيتها عندما عبرتُ في سيارة، عيناي نصف مغمضتين، والشمسُ آهِ تميل جانبياً والمدينة الأرجوانيّة تُهرَع نحو الأفق!

تصعدُ الرغبة وهي ما تزال مخنوقةً، هناك، حيث يكوِّمُ ماضيك على ذكرياتك التراب؛ إلى أين تذهب الأمواج بهذا التواتُر، في حنينها إلى الكون، كما تحنُّ أنت؛ لكن هل ثمّة ما تسعى إليه؟

ذهني ينزلق على الأشياء، هذا الكرسيّ، هذه الغرفة، الشوارع الجانبيّة، اللقاءات غير الوديّة... أعجبُ إن كان صوتك – إرادتك؟ – سيعلو نحو السماء، هل هذه الأخيرة

فارغة، هل الملائكة من نتاج الأرض...

الوقت بعد الظهيرة الآن، والبحر مالح، هل تصلني نراعك، هل أنت هناك، تسبح بشكل خفيّ، أم هل أنا ضائعةٌ في ضباب رهيفٍ ووديّ.

آه كم قديم هو الفضاء الذي نعيش فيه، أخضر، لبضعة أيّام فقط، يتلاشى؛ القصبات الطويلة تُحيْي الصيف، والأمواج تتواثب، أين الأطفال الذين لم نُرزَق بهم، بالرغم من الشاطيء، لمَ كلّ هذه النعومة...

الآن إذ تجيء، قُل لي، تكلّم، هل ثمّة ما يسقط، هل نحن في حرب، هل ظمأ الأرض يطالب بالدم، هل الغيوم تتحرك اليوم في أزواج؟ الجبل منبسط وقريب من طبيعتي، في جفافه، في شيخوخته، في مناعته أمام جيوش الشرّ. هل كلانا مهجوران يا تُرى؟

كيف سأوضّح أن البحر يتحرّك بينما أشعر بالسكينة
وأنّ درجة الحرارة ترتفع في الشوارع مع ارتفاع مستوى
اليأس...

هناك

عندما يلتقي الماء بالسماء يبدأ الفضاءُ بالتدحرج إلى الخلف، مُعيداً وُفاقَهُ مع أصله، بانتظار أن يُختزَل إلى ديمومته، وفيما بعد، سالكاً في ذلك الإتجاه، إلى لحم، إلى دم، إلى جلدٍ وأظافر... أين ذلك المكان في جسدي لاحتواء كلّ هذا؟

«ربّما» يَقول الدوريّ، ثمّ يقول «إنني أصغي»، ويغطّي نفير الضباب على صوت المحيط. إنني أجلب أطناناً من الورق في حقائبي وهل أميركا حقيقيّة، أحلمُ بها عندما تفلت مني الأمور. هل هناك من يسير في براريها العريضة، على سبيل التغيير؟

ومتى المتى، متى السؤال، أين الإيقاع؟ المحيط يدخل من نافذتي.

هذه الصيحة لا تنكسرُ كالزجاج، ليست بحاجة إلى أبجديّة. قلبك يرتعش على طول جدران المدينة التي ولدت النور، فجأةً، تحت البروق، أي نعم.

زائلٌ هو الجسر الذي سيحملنا إلى حيث لن تغرب الشمس. في الهواء الورديّ تنفتح جبال الغرانيت. قطعنا مسافاتٍ طويلة وأعوزتنا الطاقة. لم نخف من الليل رغم أن العتمة كانت كثيفة ولم ندّعِ أن الغيوم سوف تكون سخيّة. الحلم المستحيل زارنا في النوم. لم نستيقظ لكي نتأكد من الفجر.

هناك

كلّ هذا العُقْم في كلّ هذا الجمال، هناك... لمَ هذا العدد الكبير من العواهر بين الرجال؛ أركان الشوارع، القُمامة، البوليس والذباب الذي يقتات على الجثث، الحرارة، الضيق؟

لا تساوم على ممتلكاتي. إنّها ربّما لن تختفي. هنا، حوالى البيت، تُبعدُ الحدودُ المعرَّفة هديرَ البحر عن رأسي. إنك تختبيء خلف أشجار الورد. أعرقُ أنا كلَّ ليلة، وجهك يواجهني بحضوره الدائم.

النساء يبكين تحت أرديتهنّ السوداء، إنهنّ يتسلّقن السقوف ليرمين الأزهار والرزّ بدل القذائف اليدويّة، أرجوك أن تصغي، هل تتجادل معهنّ أم معي، لمَ البحر

أخضر عندما نتكلّم، حين أتذكّر جَدّيَّ اللذين لم أرهما أبداً - كان ترابهما ينتشر فوق التلال حتى قبل أن أولد - وتظلّ تسألني إن كنتُ ما أزال على قيد الحياة وما من جواب عندي على ذلك.

تجتمع التيّارات في جسدي بينما يسبح وأصير ماءً، جزءاً من الماء. الـ«أنت» هو دائماً «أنا» لذا يقطن أحدنا الآخر في فرادتنا التي لا حلّ لها.

عميقاً في نومي، كان الماء يجري وقال صوتك هناك حرب، كان المستقبل يفكّك إلى أجزاء، وهل الحبّ محتملٌ، فوق سكينتي يطفو سؤالك.

نعم، بدايةُ مَن ومَن، تنفجرُ المذنّباتُ على جوانب الكواكب الجريحة. الفضاء أفلامٌ بالأبيض والأسود، وجلدك يبدأ بالاحتراق.

من الذي ينهش الجبل عندما يجلس عليه القمر؟ قبل أن توجد الذاكرة كان هناك قمرٌ برتقالي، وعلى ضوئه مضيتُ، سائرةً، مسافرة تنتمي إلى كوكبه التوأم، وكنّا وحدنا ولا أدري لماذا.

الحرارة هذه تثقل علينا بضغطها، ثمّة شيء سوف ينكسر في هذه السرعة، هذا الرعب.

هناك

عندما يكون «هناكَ» «هنا» ويثقُلُ الهواء تدركُ أن للشمس ثقلها وطالما إنني أعرف درجة الحرارة بشكل حميمي نكفّ عن السباحة وتجعل الرطوبة عيوننا تتثاقل فتسحب نفسك إلى الباب.

هل يمكننا أن نتكلّم عبر الحدود، في حقل عارٍ حيث العصر البرونزي ما زال، والتماثيل الحجريّة تنتظر طيلة الوقت، والطين والدم على قميصك الآن، وما من ماء قريب.

أين كنّا، فلنقلُ في القرن الأخير؟ تحت أصابعي يجري جدول صغير نحو الحدائق وأعجبُ لمن هي، وهل علينا أن نعرف من يملك البساتين؟ هل يمكن للواحد أن يمتلك الألق

الزائل للينبوع؟ هل سقتِ الآلهةُ نباتاتها في هذا الجزء من العالم؟

هل تتعبَدُ، سراً، لصورة أبيك المؤطرة أو هل ينبغي لي أن أستعيد ذكرى مصباح أمّي الزيتيّ، أيقوناتها المعلّقة فوق سريرها، قبل الحروب والهزائم التي محت صورها المقدّسة، ضياء الشمس الذي جفّف الحبر تماماً على أوراق العائلة.

هل نحن جميعاً نقوم بنفس الإشارات في مطابخنا؛ عندما تنزف الطماطم هل تشعر بالانتصار؟

أعرف أيّاماً يختفي فيها البشر، فجأة، مثل سلال الفاكهة، وأولئك الذين يبقون بعدهم لا يبتعدون أبداً عن نوافذهم...

هناك، في ذلك المكان، عبر شارع أكبر من عدّة بلدان، ثمّة شيء يحلّق ويحشو السماوات كما فضاءات ذهني المتباعدة؛ في ذلك المكان حيث لا تجري القطارات...

بمعزلٍ عن حركيّة الأشياء التي تحيطني، ألاحظ أنّنا سجناء الحبّ والكراهية، انظر، العشب ينحني تحت الريح، العاصفة دمّرت القرى، آه ماذا كنت أريد أن أقول، ها نحن نصطفّ...

هناك

غبارٌ. مساحيق. نساء يلبسن زينة الموت الورديّة اللون.

هل تحبّ النساء؟ أعني، هل تشهدُ توقهنّ للسير أمامك، إذ يصطحبن الأرزاء؟

أين أنت؟ من ليلة ساخنة في تمّوز تأتي ذكرى أسواق دمشق المسقوفة، وفي بحثي عنك هل تُراني أبحث عن العطر الخاص للتبغ ومعجون الحلاقة اللذين كان يستعملهما أبي؟ آثارك دمُ عقلي بالذات... أين الأين، ودائماً...

هناك، في وسط هذا اللهَف، أرى شحوب المخطوطات المنبوذة، وهناك هذه الكأس التي لم تشربها من الماء، إنّها ستساعد غِرساً إستوائياً ما في رئتي أختك وسوف أشعر

أنا بالأسف، سيكون الأمر بلا فائدة، ثم سأُتابع الاحتفال بأحْلَكِ ساعةٍ للقمر.

الريح تعوي حقّاً في حرارة الصيف، غير مرئيّة بالنسبة إلى الجميع، في مناخ كهذا ترتع الخيانة ويمتلكنا العجب ما إن كنّا سنتحرّر ذات يوم.

على سطح البحر المضطرب ثمة طرقات كبيرة تؤدي إلى مزيد من الماء، الصفير يؤدّي إلى الجنون، من حيث أقف يبدو أنني غيمٌ وُلد في لا مكان، شبيه بالحافّة الملوّنة للعدم.

لا. لا تفعل. لا تتبع التحريمات. إذا غرقتَ في يأسي يمكنك أن تصير ذاتي الأخرى، لا تصِرْ أبداً ما هو أنا، أو، إذا شئت، ما لَيْسَني، هذا الشاب الذي يأتي بعد أن اخترق الجدران، هذه القلعة، حاملاً دجاجاتٍ مقليّة ورسالة القبيلة، التي تفصحُ عمَّ؟

هل ستكفّ الأسئلة قطّ؟ هل ما زال الأموات – بعضهم، على الأقل – يعجبون إن كانت المعركة ستنتهي بالنصر، رغم تمليّاتنا للمدن التي اختفت؟

أبكرُ شمس هي مثل تلك التي غربت، في كلّ مكان، في الإسكندريّة، من يمكنه أن يتنبّأ، ومع ذلك هناك هذا النور الرقيق...

هناك

ترفّ الطيور بأُبَّهة، الشمس تغرب على التاريخ. ونحن في حرب.

ولِمْ هذا الحضور، هل هذا الحشد يعنيك أو يعنيني، هل يمكن لي أن أمتلك أيّ شيء لا يشاركني فيه الغير، وماذا سيكون؟

هذا اللايقين؟ هناك كثير من الحدائق مليئة بلاجئين هربوا من ماذا، لماذا، لينفذوا بجلدهم، ولقاءاتهم التالية بماذا، دعني أسأل.

أنت مولَعٌ بالألعاب، في هذا المكان تماماً، لمَ ينبغي لحقول الماء أن تتبخّر بهذه السرعة، كما أرى الأمر من هذا الوضع...

قطَعٌ من الفضاء تتناوب مع جذوع أشجار الموز، خيوط من النور تتحرك فوق الجرح، أجفاني تمرّرُ أصواتاً بإلحاح، سيّارة مصفَّحة تخترق الصفّ، الغزوات تقلق الغيوم، هنا، في هذا المكان.

هناك

هناك، قبالتي، من دونها، تنتظر روحي المبتورة في مقهى على ركن شارع، قريباً منها، من شقّتها، من زنزانتها وسجنها ومع ذلك ملكوتها، وهناك عبر الموسيقى، هل أنت في أوربا، أيّة أوربا، تلك السالبة، أوربا الظلّ، تلك القريبة منيّ، منّا، تلك التي تعرفينها والتي أنتجت شعراء صائحين، منفيّين مُتأتئين، رحّالةً بطوليّين!

هناك، حيث ينخسُ الألمُ أيضاً، ولو بشكل خفيف، عندما تنظر إليه امرأة وهو يحلم بقاربه الشراعي، وهي تحلم بملاءات السرير والنوافذ. هل أنت هذا الرجل - أو هذه المرأة - هل أنت أنا، ذاتاً تفجرّت وتناثرت أشلاءً، منحّيةً جانباً على الدوام، خارج المسألة، خارج مجال نظرك، وسبيلك تخترق سبيلي؛ أنت لربّما بذرةُ الأرض

الخبيئة، وأنا، القمر، من المحتمل أنني مصر وقد ولدتْ ثانية، نعم، هذا محتمل، كالشموس التي تنتظر ما وراء وخلف جميع الآلات السابرة التي نبعث بها إليها.

هل أنت، هل أنا، هل أيَ أحد **هُو-يٌ**، هل أيَ أحد **يَنْـ-وَجِدُ**، هل المادّة حقيقية، كما أننا حقيقيّون، لكن ألسنا حقيقيين لأننا نموت والمادّة لا نهائيّة لذلك لا يمكن أن تكون حقيقيّة؟

هل تؤمن بالعداوة، تدمّر التلال لأنك لا تستطيع أن تقتلني، هل أغطيّ الأرض بالإسمنت لأن شيئاً ما مات في داخلي حتى قبل أن أولد؟

آه كم من المؤلم أن نشهد عبور الزمن بشروط الأجساد الميّتة والهُيامات الضائعة، وهذه المسافة، ما بيننا، منيعة على العبور، وكلٌّ منّا يدري من الذي سيموت أوّلاً، أين أنا وأين أنت؟

هناك

في مخبأ قصريَ الأخضر، فوق جسرٍ ما، تحت ظُلَّةٍ من الضياء المتلألىء، عبوراً إلى هناك، بين الأغصان القاتمة وأوراقها المرتعشة، ضائعةٌ أنا في عطر الأزاهير الصفراء، مأسورةٌ في النور المتسلّل للمدى.

هل تحصي سنوات غيابي، متذكراً لقاءً أولاً، مكاناً، ساعةً؟ هل كنّا أعداء آنذاك أم هل حدث ذلك فيما بعد، ليس هنا، لا، بل في نقطة ما في الماضي، داخل غرفة ذات مصاريع مغلقة، وأين انتهى هذا كلّهُ؟

كنتَ صبياً يركب درّاجة، يسوقها في زقاق من الإيقونات، ولا أدري لماذا كنت لا تحدّث أحداً آخر سواي.

عندما يصير المناخ ذات الواحد برمّتها، ينقلب البرق كلاماً والرعد يغدو مقاماً. ها أنت تجلس على أرضيّة بيتك المرصوفة بالحجارة ترقب الموسم وكيف يسري.

أين، هنا، على هذه الأرض، عندما لا تأتي القطارات ويبقى الحصار، سأكتشف من يأتي إليّ بالموت، في هذا النفق الأطول من الليل.

هناك

في مكانيَ هذا الزمانُ مقطوع، الموت قد يكون بدايةً، نقطة البدء لثورة ما: في السكينة المحاطة بأعلى الأشجار، وبعد ذلك الجبال، وما وراءها، فضلاتُ التاريخ...

هنا، أحمل «هُناي» مع حقائبي؛ جسدك تمثالٌ يتفسّخ، أنسَ إيطاليا، سفوح تلالها المسمومة، دعنا نعبر ذلك الجسر قبل أن تتساقط أوراق الخريف.

يمكنك، إذا رغبت، أن تكنس أرضيتّك ببَرْشَمان عائلتي، لكن حَذار، إنّ الريح ترتفع، الهواء يتمعْدَن. أحيا في ألقٍ يجدّد حيويّته الفاعلة.

هناك تنتصبُ شجرة. أنت تدفع الصحراء قدُماً. أنا

أجلس وساقاي مطويّتان تحتي، أين؟ على الحافة؛ وهُنَذا، بحرٌ من الغبار.

أعمقُ هو النسيان أعمق هو الإنسِكان. بنينا إمبراطوريّات بلا حدود. على أن الخيول أرادت أن تكون الحقول مسوّرةً لخوفها من مناجم الملح.

أهناك لغةٌ للعشّاق لا حاجة بها إلى العشّاق؟ هل نتبادل سلسلة الأنساب فوق جثّة شاعر مختومة في ضريحها؟

هل لنا أرض؟ هل الشرفات لنا، هل دلّينا سيقاننا فوق حواجزها، هل كنت طفلاً أجعد الشعر وأنا، لا صبر لي على بلوغ سنّ الرشد؟

إنّنا لنعبد الأمواج، أليس كذلك؟ ثمّة طيور غريبة يُصار إلى طردها، من قبل القبيلة كما أفترض. بينما تحتدم

المعارك، عندما تنتظر صفوف طويلة من الذكريات أن تُبعث، يستمرّ ذبحُ الرعاة ويغدو الموت ظلّاً متحركاً على شاشة.

أصير حيواناً مفترساً، يبحث عن إثباته الذاتيّ في الجثث - كنايةً عنك وعنّي - لكنه حقيقي بالنسبة إلى أولئك الذين تركوا وراءهم آثاراً متفسخةً كهذه.

هُنا

ما هو «هنا»؟: مكانٌ أو فكرة، دائرةٌ مرتكزة في عين اللّه، الإطار المتجمّد لموجةٍ كونيّة، جوّالة، محتومة؟

هنا، حيث الحرارة تُلطّفُ وتُسكن، عندما يستسلم الجسد قبل أن تصله الإغواءات، وهناك، حيث درجة الحرارة تُغلي العقل وتجعله ينفجر في فعّاليّات مفاجئة: هنا نقطة اللاعودة...

هناك

الجيوش تُغرق نفسها في هذا اللايقين، الخيول تعاود الظهور، لكن لمَ، هل يمكن لهذه الأرض أن تستمرّ في خلق الأساطير بينما تعيش في ظلّ شرَعك، بقوانين من، في أيّة لغةٍ - أمّ؟

النجوم في الوديان، كالعادة، تفوق الينابيع عدداً، وأعجبُ إن كان أطفالك سيمشون على الأشواك والعاقول، لماذا اخترت هذا البؤس أم أنك وجدت فيه شيئاً من الأُبّهة؟

إسمع. إصغِ إلى الريح. ليست الذئاب هي التي تعوي بل رجالك الذين ترتعد فرائصهم من هياجك. أقول لك أن المستقبل سعر اليوم، ثم أراك تضحك كما كان يفعل أبي.

أمامنا صخر الغرانيت. خطّ الجبال يرفع نفسه فوق الأفق ونحن نحتفل بانتصاراتك، لا بانتصاراتنا.

مُحالٌ هذا المحال في مُحاليّته. الظلال، رفقاؤنا القدامى، تنطق بهولها الخاص. لماذا ينبغي لي أن أفكّك أبسط قوانين الطبيعة - كيف لي أن أفصل ظلّك عن جسدك، وكيف سيعود ذلك بأيّة فائدة على الأُمَم التي أمحضها ولائي؟

ستركض الخيول من هنا إلى اليافطة التي زرعتها في الغابة، تلك الأقرب من هذه الصحراء الشاسعة، وهذه المسافة، بين هنا وهناك، سترسمُ حدود المصير.

يتذكّر الواحد أن الخرائط المطويّة تُزيح البلدان جانباً، وبجنب هذا الفضاء تجري الوديان إلى البحر، ذلك الملوّن، وأنا يغلبني الخوف من الكمين بينما تعتقد أن الحصى

متفجرّات؛ إنّما تُسمَع الانفجارات من الضفة الأخرى للنهر. خائفةٌ تجري المياه.

ثمّة أوراق ناعمة تغطيّ جرحي وأسمع شرايينك تنبض لأن هناك طرقاتٍ سيّارة في مجرى دمك ونحن لا نستطيع أن نغيّر مجرى الزمان ولا أن نأمر المذبحة بالتوقّف.

يكمن الظلام في عينيك، لا، لا توهمنّك الظلال المسقَطة أنها تحرّيات سريّة، أعرف جيّداً كما كنت تعرف، ذات يوم، هناك، بعيداً عن مسقط رأسك، أنّ الذكاء من أجل أن نصنع الخبز، ستعبر خطواتي في خطاك كما أن ترابي سيذرّ رماد عظامك، وما من ريح في هذا المرفأ الذي استبدلناه بالمطر الذي لم يهطل أبداً، آه يا رعد ليلتي الوحيدة!

البحر، هناك، معدنيّ. إنّه «هي» الأوليّة، في هذا التركيب المادّي الذي خلقك، وخلقني، وهذا الوعيد الجوّي متى يكون، من أجل ماذا... ما من سعادة تضفرها أيدينا.

البحر من شدّة الضغط يغلي. أنت جديد على هذه الشواطيء. هل حُكِم عليك أن ترقبني إذ أتمدّد على هذا السرير، على الشاطيء، هناك، بينما الفضاء يجزرُ ويفيض تحت بطانيّة من النور كهذه بحيث لا يسع الذاكرة سوى أن تتحوّل إلى عرق وأتفه لمعة من المجد تبدو سخيفة...

هل ترك الجنسُ البشري الهُنا والآن ليتسابق نحو الثقوب السوداء؟ هل نعترف بالفشل الماحق؟ يبدو أن الحرارة قد أسرَت النسيم، أن الجبال عاجزة عن تخطيَ ارتفاعاتها المرسومة.

هل من الضروري أن يعي المرء أفكاره الأكثر قتامة، بصمت، بسريّة، في الهواء البارد، عبر الشوارع؟ هناك أنصاب لا تحصى للسويداء، هنالك، من أجله، من أجلها، وفي البداية، من أجلي.

هناك

أو هنا، في الصباح الباكر، كم هو باكرٌ تسألني فأجيب دعنا نمضي مع النهار، الحوار دائماً شيء سياسيَ لأنَ ذاتين تشتركان فيه واحتمالُ أن يقاطعه الموت حقيقيَ دائماً، دائماً هناك، وقد يحدث هنا، في أيَ وقت، عند الدرج، قرب النافورات، والموسيقى، ودعنا نشرب نخب أشياء لا تُقال!

هذا الجدار، حلقة برونزيّة غائصة في الأرض، والأرض تغوص في ذاتها؛ عندما كنت أغرق كان ذلك في بحيرة؛ كنت تمتلك - هناك، على أفقي - هذا، إلى جانبي الأيسر - الطريق التي تؤدّي إلى بيتي. الطيور كانت كثيرة تستقبل الربيع. هل أنت مولع بالطزاجة الخاصة التي تملكها تلالنا عندما يتحوّل البحر إلى سجّادة، تلك هي الساعة التي ينظر

إليه البدو فيها بفرح. إنك تجلس دائماً قبالتي على المائدة، لتبدّد هواجسي الغريبة.

في الحرارة، في انسخان الأرض، هذا الامتصاص لحرارة الشمس من قبِل الأرض، أحاول أن أصل إليك، في جوار البحر الغارق، أيّ بياض يحيط بي وأيّة مسافة بين رسائلك وأجوبتي!

هل أنت إبني، أنا متأكدة أنك لست، ولن تكون أبداً، فالوقت دائماً أبكر من اللازم، أو يكون قد فات، عندما تُغلق الأبواب، آه لحركات الأجساد على حافّة البحر...

في مكان ما، كان من الممكن أن تكون غضب أبي، هو الذي لم يفُه بكلمة بعد أن بلغ الأربعين، وتدري، في بقعة ما هناك، تحت حجر أبيض، ما بقي من عظامه يطالب بالعقاب، وجواب البحر مجرّد موجة تنتفخ، برقّة شديدة،

بينما ينتظر الهواء منه أن يعطي إشارة: أحياناً يفسح الجمود مكانه للفعل، أيّ فعل علينا أن نرغب فيه، أيّة مدينة ستقطن فيها، أيّها تلك التي ستُفضي إلى الراحة في قلبي؟ أين نذهب من هذه النقطة؟

هناك منفذٌ للأرواح التي تسكن البحر، هل ستتدبّر أن تضطجع ما بيننا، هل الباص يجري بلا هدف، هناك، حيث لا يحتاجه الفقراء؟ بعض الناس يأكلون التراب بينما يأكل الآخرون بطاطس مقليّة... أين تحدث هذه الأشياء؟

ما هي حلقات الوصل بين هذا الفضاء وبيني؟ إلى أين تؤديّ الأسئلة بخصوص لا نهائية الزمان والفضاء؟ الحضارات المبنيّة على أسس الانتقام ستختفي. كذلك بالنسبة للحضارات الأخرى. هل باستطاعتنا أن نمضي في التفكير آنذاك؟

موقعٌ ما، موضعٌ، التنفّس يحتاج إلى أميال مكانيّة. هذا إذا أردت أن تصل إلى الأسود. (النسيم في مصر والحرارة في سورية). لقد اختفت الجبال. إلى جوارنا تنتظر العواصف، ستمطر أحجاراً ورصاصات. في مكانٍ ما، بعيداً عنّا. آه كم أبيض هو البحر عندما أفكر بك؟ في مكان آخر، في نهاية الأمر، لن يحتلّ الأموات أيّ مكان.

أتعرف ما تفعله الحرارة؟ أين؟ هنا بالضبط وفي الجوار، إنها تذيب روح المرء. تخلق حسّ الاستسلام. وإلى من يستسلم الواحد؟ سيكون من السهل أن يُقال، إلى أحد. سيكون منطقاً محرّماً أن يقال: إلى الكلّ. إلى العدوّ؟ من هو عدوّي؟ من المفجع دائماً أن يكون لنا عدوّ. يمكنني أن أرى تلالاً من النمل تضيّق الخناق.

أن نشحذ العقل بسكّين اليأس. فضاء خالٍ، سهم. هنالك، مقابل عينيّ، متاهة الفراغ. كبيرة وباردة. علينا أن

نعكس مجرى المواسم لتوافق هذه الجثث، لأنّ للظمأ الأولويّة، ننتجُ دماً وليس ماء.

تحت هذه البطانية من البياض، على الطرقات المقدّسة للقوى الضائعة غالباً ما تكون المحاورةُ مواجهةً. الكلمات جُزيئات هواءٍ تذرذرها الريح. كم من الصمت في عروق الشخص: لا نستطيع أن نتحرك في وجه هذه المعركة الأبديّة. التي لم نعطها اسماً.

هناك، على البُعد الذي تميّز فيه عيناي نقطةً بدل ذبابة، أرى رحلاتي المتراكمة. هل زرتُ بلادك؟ أيّها كانت؟ كم أقمتُ فيها؟ هل تُقرُّ بثمّة مكان على أنه لك؟ عندما أضحت عظام الديناصورات بثقل بيوتنا ماتت هذه المخلوقات. أليس كذلك؟

آه أيّها البرق، أين سنكون في يوم الحساب؟ هذا الجبلُ لن ينقسم. ولا هذه البريّة. هل يمكن تسمية الأنهار بعد اختفائها؟ تتصاعد الأسئلة في دمي منذ دمار سومر. إلى أيّ مدى؟ المدُن، ميّتة أو حيّة، تثقل العمود الفقري. أين أريجُ شجرة الآس، هل وجد لنفسه مكاناً؟

هناك

نحن لا نرسمُ خريطة للعالم، في حوارٍ ما، تحت ثمّة فيء،
بل غايتنا أن نتقاسم رغيفاً من الخبز وقطعة من السمك،
وذاك عزاء، لكن قل لي، أين كلّ الرجال الذين عرفناهم؟

الجنادب تغنّي مجد الضحى، ثم يسوء الطَقس، هناك
فيضان، لكن في بلاد من، بالسماح مِن مَنْ؟ مكبرَات
الصوت تنغَم صرخة حرب، الغابة كثيفة، لكن دعنا نتابع
كلامنا، هذه الوجبة، لقاءاتنا المتحديّة سوف يُكتب لها
البقاء مثلما لتراثنا المعرًف بشكل ضيّق.

حان الأوان لنأخذ استراحة في هذه الغرفة الدائرية، لقد
دخلناها، لذا علينا أن نبقى، يمكننا أن نأخذ استراحة من
كلّ هذا لكن لا يمكن لنا أن نذهب، إنّ القرن القادم
سيكشف عن خيبة الحبّ.

هناك

واحد. واحد زائداً واحد، الكثير مضافاً إلى الكثير.
التكاثر: للأشنات على حافّة الصبر.

هنا، على هذه الأرضيّة الخشبيّة. هناك، على سطح متحرّك وحيث تتلاقى - إذا ما تمّ ذلك - هناك أشجارٌ وحجارة، القمر يحمّمُ بنوره هذه القطعة من الأرض.

تريُضٌ على ما لديّ من أرض، ذلك ما يشغلك، هل تُراني أهتمّ؟ ما من شيء مؤكد عندما يتعلّق الأمر بك، بي، بنا. بهم.

فلتأت دوماً، إذا استطعت. سيكون من الأفضل لو أن ذلك حدث ليلاً، دعنا نفكر بطريقة أفضل، ما من طريقة هناك، فالحدود مغلقةٌ وأنا لا أنام في بيتي.

لو لم نكن مرتبطين بمكانٍ ماذا يمكن أن يقال عنّا؟ سوف أقدّم البحر في إطار وسيكون ذلك مؤقّتاً. ليس جواباً. ولا هو بالسؤال.

هل المكانُ وهم؟ ألا نذهب جيئةً وذهاباً في عالم لا مرئيّ رغم أنه حقيقيّ كالمائدة التي أتناول عليها إفطاري؟ وماذا عن اللامكان الذي يسبق ميلادنا وذلك الذي، على الغالب وهميّ أيضاً، سيأخذنا الموتُ إليه؟ هل تُرانا نستعير الهُنا والآن وإذا كنّا، فمِنْ مَنْ؟

هل للحقوق أُسسٌ إذا كانت هناك هذه الكثرة من العناصر التي تؤلف في هذا الإعصار من الاحتمالات الماضي، والحاضر، مستقبلي ومستقبلك، الاقتلاع الدائم للعلل والمعاليل، في عماء العواطف البدئي، طبيعة الحبّ المبنيّة على التضحية، في جمال البحر الأعمى وفناء الشمس؛ كانت هناك براءة سابقة للأمكنة، وسيكون هنالك صمت، وكلمةُ الكلّ الأخيرة، التي لن تكون كلمةً، لا، لا، عند البداية وفي النهاية ليست هناك كلمة، ما من فضاء، ليس حتى العدم، وليس حتى نُقص هذه الأشياء كلّها.

هناك

آلةُ الزمن تحدّق فينا، تاركةً وراءها بياض البحر،
تحملنا الرحلة بعيداً عن عناد الجنس البشري. المخيلة
ستخلق نصباً، واحداً، على الأقلّ، لساعة الغفران. يحدثُ
أن الأنهار تتلاقى، والمياه تستسلم لإغواء المحيط، إذا كان
حقاً أن الشمس تكرّر صعودها واختفاءها.

هناك

ما أقربها. النار واللهيب. هل يمكن لي أن أعرف مولد الريح، سقوط الشمس من مدارها، والجبال التي تطفح متموّجةً غير بعيد عن نظري؟

أين؟ كيف ينسج المكر ألعابه على هذه التلال؟ لماذا تصرخ القطّة وتركض جميع هذه الثعالب على حدود الرعب الأخيرة؟

هناك، لا على هذا الكوكب، يحاول ملاكُ جانبي الأيمن أن يتحرك أمامي ونحن نقاتل في هذه المعركة التي لا تنتهي وتغسل دموعك قدميّ. إنك جريح، أليس كذلك، تسقط على الأوراق المحتضرة لهذا الخريف، فلنُبعد عنّا الأسلحة، أيّاً

كان من يملكها، إنّنا نصلّي لروح المطر نفسها تحت هذه السماء التي لا تُحدّ.

إسمع، التعبُ يسري في أطرافك، لقد مشينا طويلاً. انظر، هناك رملٌ، انظر إليه قبل أن يغمض النوم عينيك. ثق بيديّ، ستعطيانك بطانيّة، لكن أين ستضطجع، ألم يلقّنك الجيش كيف تستريح تلقاء جدار، أنا لن أعطيك سريراً من الزهور، ولا تابوتاً، كلاّ، لذا فلتكتفِ بالفيء تحت شجرة السنديان.

ما هو الحبّ؟ نعيشهُ بشكل حميميّ لكننا نتجاهل ما هو. إنه يشبه الفضاء والزمان، ومثل هذين التصوّرين، فهو واضح، فعّال، وعملياً لا وجود له، وهل أحبّك بسبب هذا القرب، هذا التورّط الإستحواذي؟ لقد ملأت فضائي زمناً طويلاً، وتسلّلت إلى مياهي، تاركاً لي إشارات، آثاراً

باقية منك، انظر، ها هو البحر يغادر، لقد صار ما وراء

الأفق.

هناك

مرّةً أخرى. اسمع، بينما أذنك متناغمةٌ مع البحر، هو الذي يعكس في مياهه صورة فتوّته... لمَ يكون غيتو السود، في سان فرانسيسكو، بهذه القتامة، عند الغسق، بينما يمخض المحيط هياجه الأبيض وترتدي إفريقيا حزاماً أرجوانياً ملفوفاً على أفقها؟

هل شحنت أفريقيا أسودها إلى البحر الهادي، هل تنتظر أن تقع السعادة المستحيلة، وإذا حدث ذلك، فعلى أي ساحل، هل سيكون الشهر في الربيع أم الشتاء، هل سنستأجر غرفة تطلّ على المحيط، ونصاب بالحمّى؟

أغمضت عينيّ، هذا الصباح، أمام صورتك، بعد أن شوّشت رؤياك نظري، وكان ثمة شبح يقف هناك، على بُعد

عدّة أقدام من مقعدي، وكانت قطعة الأثاث من طراز «الشيكر»* تقول، آه نعم، لقد وصلتنا أخبار الماضي واختفائه.

هل ما زالتَ شاباً أم هل هرمت، مقترباً من نهايتك، هل لم أعد حسّاسةً تجاه ما يقلقك، لكن آنذاك هل باستطاعتي أن أحفر ذهنيّتك كما يفعل علماء الآثار؛ هل يمكنني أن أخمّن أبعادها، وهل هي قابلة للإدراك من قِبل روح غريبة، هل سنرقص، وماذا لو أنك جميل، هل سنلتقي بصفة مجهولة، بذوات مغالَطة، طالما أن البحر مجال طمأنينتي ومثاب كلّ الأسئلة؟

هل سبق لك أن حاولت ارتقاء الهواء بكلّ الوسائل المتاحة لك، الملائكة تفعل ذلك، اعتماداً على أسمائها، وتساعدها في ذلك الحرارة، وهناك ثمّة دعوة، إنها تفوقنا

*Shakerl لشيكر: قطعة أثاث أمريكي.

عدداً، هنا بالذات، بحضورٍ يبعث على الاختناق، هذا ما لم
نتحدث عنه أبداً، هل فعلنا ذلك، ولمَ، ومن يدري...

هناك

ليس بعيداً عن بيتي اعتدتُ أن ألعب مع الأمواج - أين هي الآن؟ كنت طفلة آنذاك، ما أبعد المكان الآن، يكلّمونني عن عوالم أخرى، ما يهمّني هو هذا العالم، المتكوّن من الكرسي الذي أجلس عليه والألم الذي يضيّق على قلبي، والنور الذي يسقط الآن خارج النافذة.. أين مقصّاتك، تلك الحادّة والزرقاء، التي كنت تقصّ بها ثوب أمّك؟

هل أنت في مكانٍ يمكنك أن تسمعني فيه، أما هل أنت ميّت، لا يمكن الوصول إليك بعد، وهل اللعنة ستتبعنا، لماذا أستنتج أن الموسم قد تغيّر، والحرارة قد تدنّت، هل سيكون من الأفضل للأموات لو أن المطر تهاطل على الأرض؟

لطول ما كرهتك في المجال الباطنيّ الذي قطنّاه معاً أنك
الآن الطبعة السلبيّة لذاتي (لا، لستَ ظلّاً)، الرفيق
اللامرغوب الذي يغدو، ويا للمأساة، عُنصرَ الحبِّ بالذات.

هناك

دائبةٌ هي الساعة. صيرورة التجزئة تفترس آليّتها بالذات. الحرارة تنتمي إلى مصر والنسيم إلى سورية. فليكن!

هناك، على أرضيّة الصحراء الحميمة من ذا الذي سيقدمُ نحو فضائي المنيع إن لم يكن عدوّي؟

هكذا، أممٌ عديدة في نهاية مسيرتها ستسكن المستنقعات، خارج الخطاب المفهوم. لقد آنت اللحظة التي لن يحتاجوا فيها إلى حدود معيّنة. الصحراء تجمعُ ما تقسمهُ المدُن.

هناك ضغوط. مُطلقيَّةُ المادّة. باروسيا*. هذا البدء، والرحلة أمامنا. أُفقيَّةُ الضياء. حقيقة الشمس (أيَّة حقيقة؟) هُنائيَّةُ الأبد.

الكلامُ، في كون قياميّ، محتوم المصير. تطلّعْ إليّ بينما تقدر عيناك أن تريا؛ هما أيضاً لن تبقيا على قيد الوجود.

من أين جاءت الريح التي جلبت للشعب الخديعة؟ إنّ الأسئلة تشيخ لكن كم مرعبة هي الأيّام التي لن تكون فيها أية أسئلة.

سويداءُ الموسم تنتهي على قلبي - الذي أراه في شكل جبل - وماذا يلي ذلك، النور والهواء على عتبة المعبد. لقد هاجرت الآلهة، تاركةً الأرض - والأمواج الصوتيّة - في

* Parousia: التجلي بلغة الإغريق.

فوضى شاملة، وثمة شروق مُعْشٍ يتدفَق في جميع زوايا العقل.

أنا قريبة من أوردتي وشراييني قدر الإمكان، أنت غائب، الغيوم تغطّي الجبل، ربّما كفَّ عن الوجود، لقد أضعتُ طريقي، إذاً فهو ليس ضباباً، لا، إنه غير مُسمّى، وهذه السماء، التي ليست كذلك، هي مرآة ضلالي.

هناك

هناك، في مفازات الروح، في تكراراتها، حيث نتعجّب إن كانت هناك ثمّة اختلافات بين حُجرات العقل الباطنة ومجالي المخيلَة الخارجية، تكمنُ المواجهة بين الذات ونفسها.

حيث المكان ذكرى خالصة، حيث الهواء مُندّر، حيث الخطّ أنحفُ من أُفق. أواجهُ مطالب التعريف، ضغطَ حقائق كنت أظنّها كفّت عن أن تكون لي.

إسمع، علينا أن نُناديك، أن نوجّه انتباهك إلى هذا المكان المعيّن؛ يمكننا أن ننفي الزمن، لكنه لا يبدو أنه قادر على تجاوز بُعده الفضائي، لا نستطيع أن نخون المادّة، أن نربح حيث حاولت الآلهة وخابت.

هناك حجارةٌ في اليونان، وثمّة، في نوم الواحد هناك، رخام أبيض، حيث تتحرك الأشياء، حيث يمكن للمرء أن يختبر نوازع الحريّة، أنت، الزائر الليلي المجهّز بالأشعّة ما تحت الحمراء، تستطيع أن تراني بينما أعجز عن ذلك، لذا لا شرف لهذه المعركة، ما ينبغي قتلهُ سبق وأن مات، دعونا لا نبدّد الوقت الباقي لتلك الملائكة التي تريد أن تخالط البشر؛ لقد أخفناها لأن الأرض كانت فقيرة وينقصنا الخيال، إن الآلهة لن تعاقبنا، لسنا مهمّين إلى تلك الدرجة.

لن نستطيع أن نخلط الإشارات، لا، لن نستطيع، فهي ستدومُ بعدنا. إنّ طبيعتها توجب عليها أن تبقى واضحة، مثلما هي السماء اليوم، صافيةً بشكل لا يُحتمل، في كلّ صباح تحدث الخليقة، الشاراتُ موزّعةٌ على الآفاق.

العُقْم الأخلاقي يجعلنا ناجحين. الحربُ فجّة. واضحٌ هذا. إنها تشحذ الرغبة، المطلقة بين الرغائب، تلك التي

يُقصَد منها أن تُفني ما هو كائن وتبعث إلى الوجود ما لم يكن له أن يوجد، أن تُحيل مشروع الحبّ الميتافيزيائي إلى كراهية.

الحرب حوارُنا. إنها تأتي بالانفجارات إلى البلد، بأشلاء أعضاء بشريّة، ورسائل الحبّ المفخّخة. نحن محاربو الحزن القُدامى، كتبنا مراثينا على عظام لا تحصى. الكتابة دَائماً، ذلك الصوت المسجَّل الصامت الذي يقفز عبر أجيال ليطالب بالأبديّة من أجل الدم.

ماذا يجعلك إذاً تعود إلينا عبر الجبال، في مُحْل تموّز، تحت ربقة الشمس، وآبائنا المفقودين، الألوهات التي نتشارك، من أين تنبثق الطاقة العمياء، من الأرض، من السماء، من المتاه؟

هناك

تحت القلعة المستحيلة، الاستحالة - التي هي الوقوف - توقع الغيوم تحت طائلة سحرها، وفي هذه الاستحالة، على بُعدٍ محدَّد، من الذي ينظر إلينا؟ لا إله ولا قطعة من المادّة، بل رغبتك في نوم عميق وحنيني إلى نهاية لهذا الدم المسفوك.

الشروقات فوق رؤوسنا تتحدّى دعوة المدفع، وفيما بعد، من وراء القلعة، هناك الأرض الشماليّة شماليّ إيطاليا الشمالية، ونهر يجري إلى الشرق، وهناك توجد البوسنة، حيث كان لك بيت، وكان لي أقرباء، أم هل كان الأمر بالعكس، هل عليّ أن أملك قوميّةً لكي أكون بشراً، وهل أنت بحاجة إلى أن تحمل كثيراً من الأوراق إذا أردت أن تحلم، بعينين مفتوحتين، بجبالٍ تزورها الطيور... هل نحتاج أن

نملك إسماً عندما يسمّي الجياع أنفسهم «غياب الخبز» أو القدّيس يوحنّا المحتضر؟

هناك، قبالتي، ترتفع الموسيقى، نونو، لويجي نونو، الذي كان يؤمن بوحدة الكلّ Ayacucho ....Caminantes، أصواته البدويّة التي تولّد الرعد في ليل إفريقيا، أين الأمل الذي كان يضعه في بساطة المعاني بينما كان يموضع أبواق قيامةٍ مستمرة في تزامُن الكينونة الجماعيّة؟

إنّه الأمس منذ الآن، أعني أن اللحظة الفائتة بعيدة في الوراء كأبديّة من الزمان، لكن هنا، في أخوّة السرد، هناك هذا الجوع، أولئك الذين يحتاجون إلى الخبز يحتاجون إلى الزهور أيضاً، وإذا كنت قد جئت لأسمع الموسيقى، فلقد وجدت القلب، سارت بيننا إشراقات صغيرة، من أودية الدموع هذه تتصاعد ابتسامة تحت الأمطار الأولى للموسم

الأوّل، آه نعم! الذي هنا والذي هناك جزءٌ من استمراريّة ما تتألق في الليل من تلك القلعة، التي نوافذها مضاءة كلّها، وكلّ جدرانها اختفت.

هناك

الأفق مسطَّح ودائري، فوق مستوى العين. عندما يصمت البحر، تُسمَع الحرب بأفضل ما يكون. هناك ثورات بيننا وبين دوران الأرض. كم وحيدة هي الكواكب!

بينكِ وبيني هناك وفرةٌ من الهواء، من الرغبات المعلّقة، وذكريات بكميّات بطوليّة، في هذا الضريح الذي هو غرفة وفي الطرق المائيّة الخرافيّة التي هي الشرايين.

أحببتِ شوبرت وليس شومان، لماذا؟ هل كلّ شيء يأخذ نهجه بدءاً من وهم؟

هذه المرّة، في داخلي، يرقدُ جسدٌ مات بالنسبة للعالم وجاء ليسكنني. الغيابُ يُحيّي عبورَ الزمان تحيّةً عابرة.

هناك

في هذه الساعة المتأخّرة، هذه الجزيرة، هذه الحديقة، ماذا نحتاج؟ عندما تتساقط من يديك قطرات الماء - بعد أن غسلت وجهك - تبرد منْشفتك وتدعو حرارة الصيف لتغطّيني بسديم غيمة هائمة.

أردتُ أن أكون الغرفة بحدّ ذاتها لتعرف أين تجدني؛ أردتَ أن تكون حصاناً، لكنهم لم يبنوا أيّ شيء من أجل الشعراء العرب.

غدا البشر معدنيّين. يمكنني أن أسمعهم يطالبون بالانتباه، لكن اللّه استسلم لإلهه الخاص. لا أحد ينكر الصعود ورحلة العودة. الصحراء تزدهر بالندى، الآلهة الأقلّ شأناً تقيم حفلة. تبقى لنا الأصوات.

هناك

نحيا دائماً في موسم ما، أليس كذلك؟ المواسم تتتابع. اليوم رأيت بعض الأوراق المتبقّية تتساقط من شجرة الزيزفون وفكّرت بدموعي أنا. لا فائدة تُرجى من الإشارة إلى الربيع القادم. الطريق أمامنا طويلة وفارغة تماماً. البحر مسْردةٌ دائمة. إنه دائماً ظلٌّ، رديفٌ، يقدّم نفسه على أبواب المطاعم ومقابر أخرى مثلها. هل ستقول الحديقة لمالكيها الجدد من كنتُ ولماذا لم يعد لي وجود؟

هل يمكن لي أن أصل إليكِ أيّاً كانت حالةُ وجودكَ وهل بقي منكِ بعضٌ من كينونة، حتى لو كانت صفاتها غريبة علينا، في مناطق غير أرضيّة؟

اسمعي كلمتي، إذا استطعتِ، وانكري مصيركِ، إنني لا أطالب بالامتلاء، بالإكتمال، بالانبعاث الكامل، إجلسي مرة أخرى على حافة سريرك، دعينا نستعيد الروائح، المخمل، المصطبة، انتظام أنفاسك، وجيب قلبي، أحلى عطايا اللحظة.

أيّة لحظة تقولين، أين مضت، لماذا كان وجهك كالحاً هكذا أثناء التشنّجات التي كانت توحّد بيننا بشكل باقٍ؟ تلك المعرفة موسومةٌ على دماغي.

هل كنّا حيوانين مقيّدين بالأرض أكثر من أن يقدرا على الطيران؟ كيف يمكن لشكلكِ الصلد أن يغدو هواءً، أو للنصّ أن يكون مكتوباً من قبل.

من قطع الخيط، عشيقتكِ؟ تذكّري، كانت لكِ واحدة، انزلقت، وسقطت، والموسم يمرق، أخافك هذا، كنت ضحيّة حرب، أدري...

لقد دخلنا الجنّة، ألم نفعل؟ عكسنا آية الطرد، أليس كذلك. ما أقصر مثل هذه المسافات.

هناك

أُمُّ المعارك، أجل، أرض المعركة، الحرب. البعض ينام والربطة تلفّ عنقه، أنشوطة الجلاّد.

المدينة جيشٌ يتقدّم. الأشجار ترتدي جلالها مثل راية، إنها تؤلّف حرس الشرف. على لوائح الأعداء الإعلانيّة لا شيء لدينا نبلغهُ. نخال أنفسنا أشياء صلدة تتصادم لكن الوضع مختلف.

هناك طريق تربطنا بالمملكة السوداء ونسلكها بين حين وآخر. في طقس كابٍ رمادهُ متدرّجٌ بشكل متساوق، نتوجّه نحو أُناس يتحركون باحتراس خلف غلائل متألّقة. هناك، ننخرط نحن الأحياء في أحاديث مع الموتى: إنّ أصواتهم خفيضة. الرماديّ في هذه الأصوات أيضاً، ولُجاجة غريبة

مع أنها ملحاحةٌ في هدوئها. إننا نواصل التخاطبات الصامتة التي كانت تجري بيننا في أزمانٍ أصبحت عتيقة منذ عهد، وأحياناً نتمدّد بينهم، بلا نوم، ولا يقظة. إن حضورهم قويّ، وسريّ، نوفد إليه حالات وعينا. الكلمات التي تقال جدّ قليلة، لكن الحوار الذي لا مفرّ منه يجري في كلّ العوالم، تلك التي نعرفها بشكل حميم وتلك التي نتصوّرها عن طريق التناضُح، كأنّنا نسبح في منطقة ثابتة من الظلّ.

هناك

على هيئة شجرتين زُرعتا قرب بعضهما، تحت قمرٍ يهرم، نحن سجينتا حالة دائريّة. الذكرى تحتاج إلى غفران أوّلي. الطاقاتُ، في تسارُعها، ستكسرُ السماوات.

هناك، حيث ثمّة نار، عندما يتصاقبُ الخوف من الموت مع الربيع، هل سيُحتَّم علينا أن نكون عشّاقاً لا يمكنهم أبداً أن يلتقوا، قلقين كسطح البحر؟

أيتها الخليقة المدمَّرة! حبٌّ الحب، عيونٌ يملؤها التراب، أشلاء الجسد المحروق مبعثرةً، نهاية النهاية وخاتمة الإنتهاء المحتومة بالقرارات الصادرة من الشمس، آه يا إنبعاث الرغبة بعد تدمير الجسد! إذا لم تكوني، كيف يمكن للروح ألاّ تموت؟

هناك

قبل أن تغرب كانت فتيّةً تغمرنا بالألق؛ والآن، بينما نضطجع مستندين إلى مخدّة والنور يتدفّق من النافذة، فإن هذه الشمس المتبدّلة، حاكمةَ مصر، إبنة النيل العتيقة والجديدة أبداً، تهبط على الماء والرمل وتمضي نحو أفق الأرض الذي لا يثبت على قرار.

أين كان ذلك، في أيّة ساعة، لماذا كنت أنتظر وسط بهاءٍ كهذا، متمنّيةً الغياب المزدوج للعاشق والمدينة؟ ما فائدة البكاء على جمال الإسكندر وهو مدفونٌ تحت الرخام والذهب؟ هل الذاكرة حضورٌ مقدّس يتكوّن من اللحم، خليقة ذهنيّة تدوم بضعة أعوام تتخلّلها بضع ساعات متميّزة وأين تلك المعرفة التي تهمّ وحدها – معرفةُ جسدي بظلّه، ومعرفةُ روحي، إذا كانت لي روح؟

ماذا ينتظرنا، ماذا تفعل الأبديّة؟ لمَ كلّ هذه القسوة عندما يكون الطقس رائعاً والجسد مُعافى؟

لقد جرّبنا النشوة في الظلام (الواحد مع الآخر)، غالباً في الليل، في الهُنا والآن للمدن الملأى بالعرق والحرارة. كما أننا مُتْنا مرّاتٍ عديدة، أليس كذلك، من شدّة الحب والفراق، بحيث أن النهاية عندما تأتي، ستكون نوعاً من العودة المريحة، رغم أنها مارقة. لقد بلغنا المطلق، ألم نفعل، لحفنةٍ من الساعات، في ثمة مكانٍ ما – بين، ما بين «أنت» و«أنا».

هناك

العداوة جعلت منّا عشّاقاً، وهذا ما جعلك تموت، هناك، على الخطّ، بين المحيط والرمل. في ذلك الليل عرفت أكثر لقاءاتك جهامة، إن جرعة زائدة من السعادة تقتل تماماً كما البرق.

هناك، تقدّم موكب من النيران باتّجاه الغابة. كان بحاجة إلى وقود إضافي ليغذّي عاطفته. هل الدمار جزء لا يمكن فصله من مركّب الحب؟

على شاشتي الأميركية رأيت الفلاّح الفيتنامي الذي كان يركض ونار النابالم على جلده أقربُ إليه من زوجته: الحرب، التي تحرّر وتقتل أولئك الذين تحرّرهم، ربطت بيننا إلى الأبد.

هناك

من المياه الأوليّة صعدنا - أنت وأنا، منذ البداية بدأنا
بحثنا وعندما أينعت الحدائق فتّشنا معاً عن فيء، ألم نفعل؟

من الرغبة في الحياة علونا وبنينا أُمَماً، ألم نفعل؟

ثمّ زارنا مخلوق لم يُسمّه أيُّ واحد من الآلهة وسمّيناه
«الموت»، فرض علينا سلطانه، وبدأ الخريف يُسقط أوراقاً
مصفرّةً على أسرّتنا في يومه الأوّل؛ ثمّ حدّقت الأشجار في
عُريها ولم نستطع أن نُعينها في محنتها، أليس كذلك؟

هناك

أين نحن؟ أين؟ هناك ثمة «أين»، لأننا بكلّ عناد، موجودون، وكان لنا وجود، فمن نحن إن لم نكن أنا وأنت؟

أين نحن؟ خارج التاريخ، خارج قصته أو قصتها، وعَوْداً إليها، خارجاً في الفضاء، وعوداً إلى الأرض، خارج الرحم وبعدها إلى التراب، من نحن؟



منشورات الجمل